الحنين والغربة في شعر معروف الرصافي

استاذ مشارك دكتور. غلام عباس رضايى هفتادرى/ جامعة طهران

الدكتور على عدالتى نسب/ (الكاتب المسؤول)

جامعة چمران/ فرع اللغة العربية وآدابها

الدكتور عبد الوحيد نويدي

جامعة طهران/ فرع اللغة العربية وآدابها

Parting and Nostalgia in Maa'ruf Arrosafi poetry

Ass.Prof.Dr. Ghulam Abbas Rezaei Heftadri\ University of Tehran

ghrezaee@ut.ac.ir

Dr. Ali Adalati\ (author responsible)

University of Khmeran\ Arabic Language and Literature

ali.edalati85@gmail.com

Dr. Abdel - Waheed Nouidi

University of Tehran\ Arabic Language and Literature

anavidi@ut.ac.ir

Abstract

Among the poets Arrosafi of the grounds of his home country, came to Iraq to Syria. But always meeting nostalgia and enthusiasm in his beloved homeland and the land remained alive and in this sense he was forced to compose poems in this issue, so that poetry poet poem is filled with such.

In this paper, we try Parting of nostalgia and excitement to the place of departure and the nostalgia that comes from a sense of patriotism is parting and parting and ignoring the plight of the poet's literary and scientific status of the rulers and the people of the times, and ascetic view and departure and roving spirit that because the poet is born, we will examine the poetry of Arrosafi .

Keywords: poetry and literature‘ Parting Passion ‘Nostalgia ‘Arrosafi.

الملخّص

إحدى الموضوعات التي طرقها الشعراء القدامى والمعاصرين هى شعر الحنين والغربة، ويمتاز هذا الشعر بالعاطفة الصادقة والأحاسيس الحزينة المتأججة فهو تجربة شعورية خاضها الشاعر القديم والمعاصر معبرًا عن شعوره بالفقد وإحساسه بالاغتراب من خلال أشعاره الرقيقة التي لا يكاد يخلو منها أدب أمة من الأمم. فمن هؤلاء الشعراء المعاصرين فمن هؤلاء الشعراء المعاصرين الذين يبتعدون عن وطنه وأحبّته وأصدقاءه ومحبوبه، هو معروف الرصافي الذي ظهرت في أشعاره مظاهر الحنين والغربة بأشكاله المختلفة كالحنين والغربة المكانية والروحية والزمانية والدينية. نحن نسعى في هذه المقالة دراسة أنواع الحنين والغربة في شعر الرصافي وكيفية توزيعها في أشعاره والإجابة عن هذا السؤال ما هو دور الحنين والغربة في تكوين شعرية أشعار الشاعر وتحريك مشاعر المخاطب وأحاسيسه. من النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة هي أنّ الشاعر قد برع في التعبير عن شعوره بالغربة وقد حنّ إلى وطنه وأهله وأحبّته، كما حنّ الشاعر إلى أيّام الشباب وذكريّاتها الماضيّة، ونجد نوع آخر من الحنين وهو الحنين الديني الذي ظهر نتيجة تقرّب الشاعر من الله تعالى.

الكلمات المفتاحية: الغربة، الحنين، الشعر، معروف الرصافي.

1- المقدّمة

إنّ الحنين والغربة من إحدى السمات الموجودة في النفس البشرية وهو التعبير عن عاطفة إنسانية صادقة ويرتبط غالباً بالغربة التي يفارق فيها الإنسان وطنه وأهله وأحبته. ويشمل الحنين والغربة أنواعاً مختلفة كـ: ـالحنين والغربة المكانية وهو ذلك الإحساس الذي يشعر به الإنسان بسبب بعده عن وطنه؛ والحنين والغربة الزمنيّة وهو أنّ الشاعر يعبّر عن مشاعره حول فقدان مكانته الإجتماعية والمنزلة التي يستحقّها، فالنّاس من حوله لا يقيمون له ولأدبه وزناً.

وقد اهتمّ الشعراء منذ القديم بشعر الغربة والحنين، فكان الشاعر يعاني ويشعر بالألم بسبب الفراق والبُعد عن الوطن وعن كلّ ما كان يفتقده من الأحبّة والأصدقاء، وأيّام الشباب، والمحبوب و... وقد ظهرت هذه الظاهرة في شعر معروف الرصافي ظهورا بارزا. اخترنا هذا الموضوع لدراستنا بسبب كثرة الحنين والغربة في شعر معروف الرصافي والذي عثرنا عليه من خلال بحثنا العلمي لديوانه؛ فهذا الديوان طافح بهذه الظاهرة. إنّ الرصافي قد عاش في دمشق الشطر الأكبر من حياته لكنّه غادر وطنه مكرهاً لطلب المال وحسن الحال، فبقي شديد الحنين إلى وطنه الحبيب، وظهرت آثار الحنين والغربة في كثير من أعماله الشعريّة فنظرا لرسالتنا العلمية ومعايشة المباحث النقدية الحديثة شعرنا بضرورة البحث في هذا الموضوع وحول هذا الشاعر لكي نعايش العصر والمواضيع النقدية الجديدة ونقدم على القراء الأكارم بحثا يفيدهم حول الأدب المعاصر. أما الأسئلة التى نريد الجابة عنها هى: ما هي مظاهر الحنين والغربة في شعر معروف الرصافي وكيف استخدم الشاعر الحنين والغربة في شعره؟ وما هو دور الحنين والغربة في شعر شاعرنا لإثارة العواطف والمشاعر وما هي كيفية توزيع هذه الظاهرة في شعره؟

2- خلفية البحث

أمّا بالنسبة إلى خلفيّة البحث فما عثرنا على دراسة مستقلة تعني بموضوع الحنين والغربة في شعر معروف الرصافي لكن تتواجد دراسات حول هذا الموضوع من العصر الجاهلي إلي العصر الأيوبي والزنكي، ففي العصر الجاهلي هناك رسالة الدكتوراه باسم «الحنين إلي الدّيار في الشعر العربي إلي نهاية العصر الأموي العصر الأموي» للطالب عبدالمنعم حافظ، وإن الباحث في رسالته هذه أشار إلى أنواع الحنين والغربة خاصة الغربة المكانية في الشعر الجاهلي والأموي، ورسالة الماجستير، عنوانها: «الغربة والحنين في الشعر العربي قبل الإسلام» للطالب خليل صاحب إبراهيم، ورسالة «الحنين إلى الوطن في الشعر العربي حتى العصر الأموي» لمحمد إبراهيم حوّر، أما في العصر العبّاسي فيمكن الإشارة إلى رسالة «الغربة والحنين إلى الدّيار في شعر العصر العبّاسي الثاني (232-334هـ)» للطالب محمّد عبد المنعم محمد قباجة من جامعة الخليل، وقد تطرّق الباحث في هذه الدراسة إلى ظاهرة الغربة والحنين في شعر العصر العبّاسيّ الثانيّ. ورسالة أخرى تحت عنوان «الحنين في الشعر الزنكي والأيوبي (518هـ-648هـ)» للطالبة مي ابراهيم حسن عمرو من جامعة الخليل وقد تحدّثت الطالبة فيها عن موضوعات شعر الحنين في العصرين الزّنكي والأيوبي وتطرّقت إلي أنواع الحنين والغربة. فبناء على ما سبق من خلفية البحث، يكون موضوعنا هذا، جديداً بالنسبة لدراسة شعر معروف الرصافي.

أمّا قبل أن ندخل صلب الموضوع فيجب علينا أن نشير إشارة مختصرة إلى حياة الشاعر ونشأته ثمّ تحديد مفهوم الغربة والحنين لغةً واصطلاحاً من خلال البحث في كتب المعاجم.

3- حياة الشاعر ونشأته

معروف بن عبد الغني البغدادي الرصافي، شاعر العراق في عصره، من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، أصله من عشيرة الجبارة في كركوك، ويقال إنها علوية النسب. ولد ببغداد حوالي عام 1875م، ونشأ بها في الرصافة، وتلقى دروسه الابتدائية في المدرسة الرشيدية العسكرية، ولم يحرز شهادتها. وتتلمذ لمحمود شكري الآلوسي في علوم العربية والعلوم الإسلاميّة التقليديّة وغيرها، زهاء عشر سنوات، واشتغل بالتعليم، ونظم أروع قصائده، في الاجتماع والثورة على الظلم قبل الدستور العثماني، ورحل بعد الدستور إلى الأستانة، فعين معلماً للعربية في المدرسة الملكية، وانتخب نائباً عن(المنتفق) في مجلس (المبعوثان) العثماني. وانتقل بعد الحرب العالمية الأولى إلى دمشق سنة 1918م، ورحل إلى القدس وعيّن مدرساً للأدب العربي في دار المعلمين بالقدس، وأصدر جريدة الأمل يومية سنة 1923م فعاشت أقلّ من ثلاثة أشهر، وانتخب في مجلس النواب في بغداد. وزار

مصر سنة 1936م، ثمّ قامت ثورة رشيد عالي الكيلاني ببغداد فكان من خطبائها ونظم جمّاً من أغاني وأناشيد هذه الثورة، ثمّ اعتزل الحياة بعد فشل الثورة بشتّى مناحيها إلى أن وافته المنيّة عام 1945م فتوفّي ببيته في الأعظمية ببغداد. اشتهر الرصافي بـ« شاعر الحريّة» بما نظم من أشعار ثوريّة ومعالجة القضايا الإجتماعيّة والسياسيّة. له كتب منها ديوان الرصافي، ودفع الهجنة، ومحاضرات في الأدب العربي.[1]

الحنين والغربة لغةً واصطلاحاً؛

يقال: حَنَّ يحنُّ حَنِيناً: صوّتَ، والحنين: صوتُ الطّرب لحزن أو فَرح، والحنين: الشوق وتوقان النفس، والمعنيان متقاربان، وحنّت الإبل: نزعت إلى أوطانها أو أولادها، والناقة تحنّ إثر ولدها حنيناً تطرب مع الصوت؛ والحنون من الرياح التي لها حنين كحنين الإبل أي صوت يشبه صوتها عند الحنين.

ويقال: حنّ قلبي إليه فهذا نزاع واشتياق من غير صوت، وحنّ عليه أي عطف عليه، وحنّ إليه، أي نزع إليه. ومن معانيه: العطف والرحمة؛ قال تعالى: «وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا»[2] أي الرحمة والحنان من صفات الله عزّ وجلّ أي ذو رحمة وتعطّف. والحنّانة من النّساء التي تحنّ إلى زوجها الأوّل، وقيل: هي التي تحنّ على ولدها الذي من زوجها الأوّل.[3]

والحنين هو «مصطلح أدبي طغى على الشعراء الذين ابتعدوا عن وطنهم فاعتراهم الشوق إليه؛ فكانوا يتغنّون به وبجماله وهم يعبّرون عنه، ولا يكون شعر الحنين إلى الأوطان إذا كان المرء في وطنه، إلاّ إذا كان في غربةٍ نفسيّة».[4]

أمّا المعنى اللغوي لمفردة الغربة فهو النزوح عن الوطن، ويقال: رجل غرْب أو غريب: غريب عن وطنه[5]، وفي أكثر المعاجم تدلّ هذه المفردة على معاني البُعد والإنشقاق والإبتعاد والمفارقة. والغربة عاطفة تستولي على المرء، فيشعر بألم وكآبة تجاه ما ترك من المفتقدات كالأهل والأحبّة والديار، أو شعور بالوحدة وفقدان المكانة الإجتماعيّة؛ أو شعور بوحدة الروح في هذا العالم.

لم يكن شعر الغربة والحنين مصطلحاً جديداً في الشعر والأدب العربي، فظاهرة الإغتراب والحنين من الأغراض القديمة في الشعر العربي، فنرى الشاعر على مدى العصور يشعر بالحنين والغربة ويعبّر عن تجربته الإنسانيّة الصادقة تجاه الوطن الذي رحل عنه. فظهر هذا النوع الخاصّ من الشعر لأوّل مرّة بصورة بارزة في الشعر الجاهلي، وأوّل من شعر بالغربة وحنّ إلى الديار وبكى عليها هو ابن حذام، ويستدلّ على ذلك من قول امريء القيس، حيث يقول:

عُوجَا عَلى الطَّلَلِ المُحِيلِ لأنّنَا نَبكي الدّيَارَ كَمَا بَكَى ابنُ حِذَامِ[6]

ونرى هذه الظاهرة واضحة في الشعر الجاهلي بشكل عامّ؛ فأطلال الجاهليّة تشكل مادّة غزيرة في هذا الموضوع. فكان شأن الشعراء الجاهليين أن يستهلّوا قصائدهم بذكر الأطلال والدّمن ويحنون إلى الديار والمنازل والأحبّة.

وقد دخلت ظاهرة الإغتراب والحنين في كتب الأدب، فالجاحظ له رسالة في الحنين إلى الأوطان تحدّث فيها عن الملوك والأنبياء والأعراب، فيورد بعض الأقوال في حبّ الوطن منها: «وشبّهت الحكماء الغريب باليتيم اللطيم الذي ثكل أبويه فلا أمّ ترأمه ولا أب يحدب عليه»[7]

والبيهقي يخصّص في كتابه «المحاسن والمساويء» بابين أحدهما محاسن الحنين إلى الوطن والآخر مساويء من كره الوطن، كما صنّف ابن المرزباني الكرخي كتابين في الحنين والشوق إلى الأوطان[8] وصنّف ابن المرزبان الكرخي كتابين في الحنين والشوق، كتاب الحنين إلى الأوطان، وكتاب الشوق والفراق.

وقد وضعه قدامة بن جعفر كغرض شعريّ تحت باب النسيب، فيقول: «قد يدخل في النّسيب التشوّق والتذكر لمعاهد الأحبّة بالرياح الهابّة، والبروق اللامعة، والحمائم الهاتفة، والخيالات الطائفة، وآثار الديار العافية، وأشخاص الأطلال الدائرة»[1] كما

1. الرصافي، 2000: 15و16.
2. مريم: 13.
3. ابن منظور، 1994م: مادّة حنن.
4. التونجي، 1999م: 1/ 385.
5. ابن منظور، مادّة غرب.
6. امرؤ القيس، دون تا: 114.
7. الجاحظ، 1978م: 11.
8. البيهقي،1919م: 286-291.

ذكره المرزوقي في شرحه لحماسة أبي تمّام، أوّل أغراض الشعراء في القديم، فيقول: «والشعراء إنّما أغراضهم التي يسدّدون نحوها، وغاياتهم التي ينزعون إليها، وصف الديار والآثار والحنين إلى المعاهد والأوطان و...» [2]

من أهم مظاهر شعر الحنين والغربة في الادب العربي، شعر أبى فراس الحمداني وهو ما اصطلح على تسميته بالروميات، التي تعتبر لباب شعره، وصفوة إنتاجه، وهي القصائد والمقطعات التي نظمها أبوفراس، وهو أسير في بلاد الروم، يقاسي مرارة القيد، ومرارة البعد عن الأحباب والأصدقاء، ويتحمل ألوان العذاب في جسمه ونفسه مدة أربع من السنين، إن لم نقل أكثر[3]كانت روميات الشاعر الأسير، مرآة تعكس جوانب مخفية من مختلف جوانبها، كما تعكس عواطف الشاعر وما يتنازع في قلبه، من عواطف شتى، وتيارات متصارعة. وقد نجح الشاعر في نقل عواطفه إلينا بصدق وأمانة[4] كذلك نرى شعر السجن والحنين عند المعتمد بن عباد وهو شعر الذى نظمه الشاعر في محنته(مقتل ابنه المأمون في قرطبة) وهو شعر المعاناة والاشعار التى نظمها الشاعر في المنفى وهو شعر الشكوى والحنين والرثاء[5]

وكان قد اقتصر مصطلح الغربة والحنين في ما سبق على الشوق إلى الوطن والنزوع إليه؛ دون العناية بالمفتقدات الأخرى التي يحنّ إليها الشاعر كالأهل، والأحبّة، والأصدقاء، والذكريات الماضية؛ فنرى أثراً بالغاً لهذه المفتقدات على شعر الشعراء. فمصطلح الحنين ذو صلة بالفقد، وهو يعبّر عن شغف المرء واشتياقه إلى المفتقَد مهما كان نوعه. فإنّ الحنين يُعبِّر عن عاطفة إنسانيّة صادقة، ويرتبط غالباً بالغربة التي يفارق فيها الإنسان وطنه وأهله وأحبّاءه لظروف مختلفة.

فعبّر الشعراء عن الإغتراب وحنينهم لوطن تركوه، لما أودعوا فيه من المفتقدات الغالية من الأهل والأقرباء والأحبّة والأصدقاء والذكريات، إمّا رغبةً في العلم، والجاه، والمال، أو مكرهين في حالة الفقر والنّفي.

4- أنواع الحنين والغربة في شعر معروف الرصافي

قد ظهر الحنين والغربة بأشكاله المختلفة في ديوان الرّصافي، فقد غادر الرصافي وطنه العراق من أجل طلب المجد والعلى، وقد عانى بألم فراق الأهل والأحبّة والأصدقاء فظهر الحنين والغربة المكانيّة في قصائده ومقطوعاته الشعريّة، وفي هذا النوع من الحنين والغربة، يذكر الشاعر وطنه وأهله وأصدقائه وأقربائه، كما حنّ الشاعر إلى ذكرياته الماضيّة وتشوّق إليها.

ونرى ظاهرة أخرى من الحنين والغربة في ديوان الشاعر الرّصافي يعبّر عنها بالحنين والغربة الزمنيّة وهي حالة نفسيّة تصيب الإنسان وهو يعيش داخل وطنه وبين أهله وذويه، فتجعله يشعر بالغربة بسبب من الأسباب، كعدم اهتمام النّاس أو الحكام بمكانة الشاعر، أو فقدان المنزلة الاجتماعيّة التي يستحقّها، ويأخذ التعبير عن هذا النوع من الغربة بصور عديدة كذمّ الزمان الذي يعيش فيه هؤلاء الشعراء، أو ذمّ أهلها، أو ذمّ حكام الزمن الذي يعيش به الشاعر.

وأمّا النوع الآخر من الحنين والغربة الذي شاهدناه في ديوان الرّصافي بارزاً، هو الحنين والغربة الروحيّة وهو الشعور بالغربة في هذا الوجود كما في حالة الزهّاد الذين يشعرون بالغربة في هذا العالم ويطلبون آمالهم في العودة إلى عالم الروح أو الآخرة. ولهذه الغربة الروحيّة بعداً دينيّاً إذ يعبّر عنها بالحنين الدينيّ، فلها صلة وثيقة بالدين الذي يحكمها ويحدّد مسارها واتجاهها.

4-1) الحنين والغربة المكانيّة

هو ذلك الإحساس الذي يشعر به الإنسان بسبب بعده عن وطنه؛ فقد عبّر الشعراء عن صدق أحاسيسهم ومشاعرهم تجاه الوطن، وبما أنّهم كانوا شديد الإتصاق بأوطانهم فجاء حنينهم حنيناً صادقاً، فكان الشاعر يعبّر عن هذه الغربة والحنين من خلال ذكر الوطن والحنين إلى الأهل والأقرباء والأصدقاء، والحنين إلى الذكريّات الماضية والحنين إلى المحبوب. وقد تجلّى التعبير عن الغربة والحنين بأشكاله المختلفة في شعر معروف الرصافي.

1. قدامة بن جعفر، دون تا: 124.
2. المرزوقى، 1991م: 1/ 20
3. أبوحاقة، 1960: 166.
4. عامر عبدالله، 2004: 83.
5. المصدر نفسه.84

الحنين إلى الوطن ظاهرة إنسانيّة لا يستطيع المرء أن يتخلّى عنها، مهما بلغ رقيّه الحضاري وتطوّره المادّي وسموّه الرّوحي[1] لأنّه منذ عرف الإنسان الوجود وعرفه الوجود، ملتصق ببيئته لا فكاك منها، وكادت الصّلة بينه وبين بيئته أن تكون أوثق من صلته بأسرته، فهو ينسب إلى أسرته كما ينسب إلى بيئته، ويستفيد صورته من بيئته، كما يستفيدها من أسرته[2].

ومنذ القدم ارتبط الشوق والحنين بالوطن، فصار الحنين إلى الأوطان شائعاً في كلّ العصور سواء للوطن والقبيلة والحيّ أم الشّعب والأمّة الكبيرة، وسواء أكان مسقط رأس أم لم يكن، فالحنين إلى الأوطان انتماء وولاء وحبّ وحنين[3].

4-1-1) ذكر الوطن والحنين إليه؛

ابتعد الشاعر عن وطنه العراق لنيلِ فُرَصِ الحياة العليا، فقد كان شاعرنا يعاني الفقر والفاقة في بداية حياته، وقد فارق بغداد سنة 1922م بعد ما لقي من ضيم وهوان، وعاش في بيروت وقرّر أن يكون مقامُه هجرةً وألاّ يعود العراق، ولكن روحه كانت متعلّقة ببغداد، فقال يصف حاله بأنّه يريد الدنوّ من موطنه لكنّ الحوادث تبعده ويكثر شكواه من الدهر فلم يجد حرّاً يواسيه؛ يقول:

هِيَ المَوَاطِنُ أدنِيهَا وَتُقصِينِي مِثل الحَوَادثِ أبلُوها وَتَبلِينِي

قَد طَالَ شَكوَايَ مِن دَهرٍ أُكابدُهُ أمَا أصادِفُ حُرّاً فِيهِ يَشكِينِي[4]

فيذكر الشاعر سبب خروجه من بغداد قائلا إنه خرج منها بسبب ضيق المجال فيها فهو يطلب العزّة والمجد والعلى ما لا يصل إليه الدهر وأهله ونرى في الابيات الحنين المكاني وكذلك نرى شكوة الشاعر من الدهر وهو من مظاهر الحنين ثم يسافر الشاعر الى دمشق ولكن لم تتسع دمشق للشاعر بما رحبت أرضها بسبب الغربة وفراق الأحبّة؛ فيقول:

أكلَّفَ منها الدهرَ مَا لا يطيقُهُ فَلَيسَ بِعارٍ أنّني فِيهَ مخفِقُ

لَقَد صَغُرَت بَغدادُ عَن أن تَضُمُّها وَمَا وَسعَتهَا بَعدَ بَغدادَ جِلَّقُ[5]

وهو يتشوّق إلى بلاده ووطنه وقلبه قد امتلأ بالهموم ودمعه يسري على خدّه من شدّة الحنين إلى وطنه؛ يقول:

أبيتُ على شوقٍ وَقلبيَ مُوثَقٌ بهَمّي وَدَمعِي فَوقَ خَدَّيَّ مُطلَقُ[6]

ويهفو الشوق بقلبه كأنَّ الصقر أو الشاهين يخطف قلبه من بين جنبيه؛ يقول:

وَيَهفُو بِقَلبي الشَّوقُ حَتَّى كَأنَّمَا تخَطَّفُه مِن بَينَ جَنبَيَّ سَوذَقُ[7]

فقد كان الشاعر في غربته يحنّ إلى بغداد، فإنّ الزمان قد فرّق بينه وبين أحبّائه، فيتساءل الشاعر عن رجوعه إلى بغداد بعد ذهابه منه وقد تشاءم الشاعر بأن لا سبيل له بالرجوع إلى وطنه الحبيب، فهو كثير الحنين إليه إذ يتمنّى أن يتعلّق بالرياح التي تهبّ من جانب العراق ليصل بنفسه إليها؛ يقول:

لَعَمرَكَ أقصَاني الزَّمانُ المُفَرِّقُ فَهَل أنا مِن بَعدِ التَّشَاؤُمِ مُعرِقُ

بلادٌ إذا ما هبَّت الريحُ نحوها تمنّيتُ لو أنّي بها أتعلَّقُ[8]

ويذكر الشاعر «الرصافة» وهي مسقط رأسه، وقد اشتاق إلى أهلها؛ ويتساءل بأن هل يوجد من أحد بالرّصافة يعلم مدي اشتياقه إلي أهلها؛ يقول:

خليليَّ هل مَن بالرُّصافةِ عالمٌ بأنّي إلى مَن بالرُّصافةِ شيِّقُ[9]

وفي موضع آخر يذكر الشاعر دار الأحبّة والتي غادرها أهلها، فلم يبق فيها من أحدٍ، فخلت وأقفرت من قوم كان يسكنها؛ يقول:

---

1. حوّر، 1973م: 18.
2. الإبياري، 1962م: 3.
3. الجبّوري، 2008م: 10.
4. الرصافي، 2000م: 556.
5. المصدر نفسه، 482- 483.
6. المصدر نفسه، 483.
7. المصدر نفسه، 483.
8. المصدر نفسه، 483.
9. المصدر نفسه، 483.

أقوى مَصيفُ القَومِ والمَربعُ فالدّارُ قَفرٌ بَعدَهُم بَلقَعُ[1]

غادر الرصافي وطنه وسافر إلى لبنان، فولع لبنان بالرصافي، فسارت قصائد شاعر العراق على ألسنة اللبنانيين. وولع الرّصافي بلبنان، فذكرها بعد أن عادَ إلى وطنه بقصائده، فهو قد قضى فترة من حياته فيها، فهو يصوّر جمال طبيعتها الخلاّبة ويذكر مواطن أنسها وطراوة عيشها وغضاضتها، فهي ترجع الحياة إلى الأرواح، ويشبهها الشاعر بالعروس في أيّام الرّبيع؛ فيقول:

لُبنان تَفعَلُ بِالحَيَاةِ جِنانُهُ فِعلَ الزُّلالِ بِغَلَّةِ الظَّمآنِ

وَتَرُدُّ غُصنَ العَيشِ بَعدَ ذُبُولِهِ غَضّاً يَميدُ بِفَرعِهِ الفَينانِ

فكأنَّ لُبناناً عَروسٌ إذ غَدَا يَزهُو بِنَشرِ غَدائرِ الأغصَانِ[2]

ويذكر الشاعر مدينة بيروت وليالي الأنس التي أقام بها، فيعتقد الشاعر أنّه لم يكن يعيش طوال عمره سوى تلك الليالي والأيّام الجميلة المؤنسة ببيروت، فكلّما تذكرها الشاعر كأنّما غفرت الذنوب الماضية من الدّهر، بسبب حُسن الأيّام وجمالها؛ فيقول:

فإنّي بِبَيروتٍ أقَمتُ لَياليَاً وَرَبِّكَ لَم أحسِب سِواهُنَّ مِن عُمرِي

وَقَضَّيتُ أيَّامَاً إذَا مَا ذَكَر تُها غُفِرَت الذُّنوبُ الماضياتُ مِنَ الدَّهرِ[3]

نرى في هذه الاشعار الحنين المكاني عند الشاعر وهو يحنّ إلى الأمكنة التي يحبها ويتشوّق إليها. يلهمنا الشاعر هذه الفكرة بطريقة الالفاظ المكاني وذكر الامكنة التى يشتاق أن يسكن فيها ويعيد ذكرها بكرات في شعره. وكذلك يذكر الشاعر أيامه الحسنة وولعه بالامكنة يذكر الليالي الجميلة والهواء المنعشة والذكريات المفرحة ويطول هذه الفكرة والتذكر ويستلهمنا بالشعور المرهف حول حنينه إلى الوطن ويمثّل المكان كالكائن الحيّ في حياة البشر.

4-1-2) الحنين إلى الأهل والأصدقاء والأقرباء؛

عندما يغادر المرء وطنه ويرحل إلى بلد آخر، فهو يبتعد عن أهله وأحبّته وأصدقاءه فيحنّ إليهم، كما حنّ الشعراء عندما شعروا بهذه الغربة. ويرى محمّد أحمد الدّقالي في دراسته حول الحنين في الشعر الأندلسي أنّه «من الطبيعي أن يحنّ المرءُ إلى أهله، وأقربائه وأصدقائه، وإلى الذكريات التي قضاها معهم بما تحمله تلك الذكريات، لأنّها تعدّ جزءاً من ماضٍ عزيز يتذكره دائماً ويحنّ إليه»[4]

فيذكر الرّصافي شأن الشعراء الذين اغتربوا عن أهلهم، أحبَّته وأصدقائه بالرصافة ويشتاق إليهم فيتساءل بأن هل هناك بالرّصافة مِن أحدٍ يعلمُ مدى شدّة اشتياقه إلى أحبّائه؛ يقول:

خَلِيلَيَّ هَل مَن بالرُّصافةِ عالمٌ بِأنِّي إلى مَن بالرُّصَافةِ شيِّقُ[5]

ويشتاق الشاعر إلى أمّه فيناجيها، فكلّما يتذكرها تسيل الدّموع على وجناته، ولكنّ الدموع لا تُجدى ولا تطفيء حرارة الشوق والحنين، فالشاعر يتلهّب لرؤية أمّه ولاتسكن روحه إلاّ بذكراها؛ فيقول:

إذَا مَا تَذَكَّرتُ العَجُوزَ بَكِيتُها بِدَمعٍ بِهِ الأهدَابُ تَطفُو وَتَغرَقُ

وَمَا شَرَقِي بالدمعِ يا أُمُّ وَحدَهُ وَلكِنَّ بِرُوحي عِندَ ذِكرَاكِ أشرَقُ[6]

ويطلب الشاعر من أمّه أن تصبر على الفراق لأنّ له همّةً يروم بها المجد والعلى، وقد تضايق الدهر وأهله من أن يصل إليه بسبب عظمته، وإذا خفق الشاعر وفشل في سبيل نيل العلى فلا عارَ له لأنّه حمل الدهر علي منكبيه؛ فيقول:

فَيا أُمُّ صَبراً إنَّ لابنكِ هِمَّةً إلَى المجَدِ تَرمِي أو إلى المجَدِ تَسبقُ

تَضَايَقَ عنها الدَّهرُ مُستَعظِماً لها وأهلوه عنها يا أُميمةُ أضيَقُ

أكلِّفُ مِنهَا الدَّهرَ مَا لا يُطيقُهُ فلَيسَ بِعارٍ أنَّنِي فِيهِ مُحْفَقُ[1]

1. المصدر نفسه، 51.
2. المصدر نفسه، 319.
3. المصدر نفسه، 747.
4. دقالي، 2008م: 287.
5. الرصافي، 2000م: 482.
6. المصدر نفسه، 482.

ويذكر الرّصافي قومه ساكني الرّصافة ويتشوّق فؤاده إليهم كلّما يتذكرهم ويطلب من الله أن يرعى الرصافة وأهلها ويحفظها من كلّ شرٍّ وأذى. والشاعر يطوي الليل وقد أرّقته الهموم بسبب الفراق عن الأحبّة، فإنّ الصبر قد نفد، لكنّه يشتاق إلى رؤيتهم والشوق يزداد كلّ حين وحين؛ فيقول:

رَعَى اللهُ قَوماً وَالرُّصَافَةَ كُلَّما تَذَكَّرتهم زَادَ الفُؤادُ نِزَاعَا
أبيتُ وَما أقوَى الهُموم بمضجَعِ تُصَارِعُني فيه الهُمومُ صِراعَا
وَألهُو ذِكرَاهُم عَلَى السَّيرِ كُلَّما هَبَطَت وِهَاداً أو عَلَوتَ يَفاعَا
هُمُ القُومُ أمَّا الصَّبرُ عَنهُم فَقَد عَصَى وَأمّا اشتِيَاقِي نحوَهُم فَأَطَاعَا[2]

ويبكي الشاعر عندما يتذكر أهله وأصحابه وهو قد ابتعد عنهم وحال بينهم الفراق، فيسكب الدّمع الغزير، ويهجر النوم عن مقلتيه ويبيتُ دياجير الليل وهو يرقب النجوم والشُّهب؛ يقول:

تَذَكَّرتُ في أوطَاني الأهلَ والصّحبَا فأرسَلتُ دَمعَاً فَاضَ وَابلهُ سَكبَا
و بتُّ طَرِيدَ النَّومِ أختَلِسُ الكرَى بِشاخِصِ طَرفٍ في الدُّجَى يَرقُبُ الشُّهبا[3]

ويودّع الشاعر أهله ويعتقد بأنّ وداعه لم يكن بسبب الهجر والصدود، وإذا رحل عنهم فإنّ في أحشائه ناراً من الشوق أشدّ حرارة من الجمر ؛ فيقول:

وَدَاعاً وَدَاعاً أيُّها القَومُ إنَّني مُفارِقُكُم لا عَن صُدودٍ ولا هَجرِ
لَئِن ازف التِرحَالَ عَنكُم فإنَّ بي إليكُم لَأشوَاقاً أحرَّ مِنَ الجَمرِ
أوَدِّعُكُم وَالشَّوقُ بِالصَّبرِ فَاتِكٌ كَفَتكِ المُلُوكِ المُستَبِّدِينَ بِالأمرِ[4]

ويذكر الرصافي أحبّته كلّ يوم عند طلوع الشمس، فيمضي يومه بذكراهم فإذا دنت الشمس إلى الغروب فيشعر في نفسه بأنّه لا يستطيع صبرا، وكلّما يهبّ نسيم من بلاده ووطنه يحمل رائحة أحبّته يحنّ إلى رؤيتهم وكلّما ينظر إلى السماء ويلوح كوكب بأنظاره يتذكرهم فتهيج أحشاءه ذكراهم؛ يقول:

وَأذكُرُكُم لِلشَّمسِ عِندَ طُلُوعِها وَيعزُبُ عَنِّيَ الصَّبرُ أيَّانَ تَغرُبُ
اَحِنُّ إلى رُؤياكُم كُلَّما سَرى نَسيمٌ وَأبكِي كُلَّما لاحَ كَوكبُ
لَقَد بَانَ صَبرِي يَومَ بِينِكَ إذ قَضَى بِهِ صَرفُ دَهرٍ لَم يَزَل يَتَقَلَّبُ[5]

وتنسكب الدّموع الغزار من أجل الفراق، ونار الشوق تلتهب في قلب الشاعر، فهو يمضي الليل مسهّداً والوجد يشبّ النار بين ضلوعه ودمع العين لايفارق خدّه، وفي هذه الحالة فإنّ الصبر لايجدى، سوى دمعة تسيل من العيون بحسرة فهي الدواء المجرّب في تلك اللحظات الأليمة؛ ويوم الفراق هو أشدّ وأصعب يوم علي الشاعر بما واجه فيه من آلام؛ يقول:

إلى كَم تصبُّ الدَّمعَ عَيني وتَسكَبُ وَحتامُ نارِ البَينِ في القَلبِ تُلهَبُ
أبِيتُ ولي وَجدٌ يَشُبُّ ضِرَامُه وَدَمعٌ لَهُ في عَارِضِي تُصَبَّبُ
وَهَل لِمُشَوَّقٍ خَانَهُ الصَّبرُ عَنكُمُ سِوَى دَمعِهِ فَهوَ الدَّواءُ المُجَرَّبُ
ألا إنَّ يوماً جَرَّدَ البَينُ سَيفَهُ عليَّ به يَومٌ شَدِيدٌ عَصَبصَبُ[6]

ويعتقد الشاعر بأنّه قد أخطأ إذ كان يظنّ أنّ فراق الأحبّة سهلاً، وعندما أتى الفراق قد رأى أنّه أخذ منه كلّ ما يملك وأصبح صفر اليد لايملك شيئاً، والشاعر لايستطيع أن يفارق أحبّته، فهو ضعيف النّفس لايتحمّل الفراق والهجر؛ فيقول:

وَكُنتُ أظُنُّ البَيْنَ سَهْلاً فَمُذْ أتَى شَرَى البيْنُ مِنِّي مَا أرَادَ وبَاعَا

---

1. المصدر نفسه، 482.
2. المصدر نفسه، 183-184.
3. المصدر نفسه، 280.
4. المصدر نفسه، 747.
5. المصدر نفسه، 738.
6. المصدر نفسه، 738.

وَإنّـي جَبـانٌ في فِراقِ أحِبَّتي وأنْ كُنْتُ في غيْرِ الفِراقِ شُجاعَا[1]

ويذكر الشاعر أحبّائه الساكنين بين الواديين ويدعو لهم بأن يرعاهم الله، فكلّما تذكرهم يهتزّ الشاعر شوقاً إليهم بسبب حبّهم، وفي تلك الأماكن قضى الشاعر أيّام شبابه وله خواطر منها يعيى اللسان من أن يبوحَ بها، وهو عند تذكرها ينوح ويتشوّق إليها كما تنوح الحمامة الورقاء؛ فيقول:

رَعَى اللهُ بيْنَ الوَادِيَينِ مَواطناً إذا ذُكِرَت يَهْتَزُّ بي نَحوها عِشْقُ

قَضَيْتُ بها عَصْرَ الشَّبابِ فَلِي بها خَوَاطِرُ لمْ يسْمحْ بإفْشَاءِهَا النُّطْقُ

فَلا تَعْجِبُوا مِنْ أنَّني عِنْدَ ذِكْرِها أنُوحُ عَلَيْها مِثْلَما نَاحَت الوُرْقُ[2]

ويقف الشاعر في منطقة الكرخ ببغداد يودّع أهله وأصدقائه فروحه تكاد تطير من شدّة الحزن بسبب فراقهم وقد ضاق صدره ذرعاً من الفراق والبين الذي شتّت بينه وبين أصحابه وأصدقائه، فهو يودّعهم وعيناه تسبلانِ الدّموع؛ فيقول:

وَقَفْتُ غَداةَ البَيْنِ في الكَرْخِ وَقْفَةً لَها كَرُبَتْ نَفْسِي تَطيرُ شُعَاعَا

أودِّعُ أصْحابي وَهُمْ مُحدِقُونَ بي وَقَدْ ضِقْتُ بِالبَيْنِ المُشِتِّ ذِرَاعَا

أوَدِّعهُمْ في الكَرْخِ وَالطَّرْفُ مُرْسِلٌ إلى الجانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْه شُعَاعَا[3]

4-1-3) الحنين إلى الذكريات الماضية؛

ومن أنواع الحنين أن يذكر الشاعر ذكرياته الجميلة المؤنسة التي كان قد قضاها في تلك الديار والأمكنة، فيحنّ إليها. ويمثّل هذا النوع من الحنين أي الحنين إلى الذكريات الماضيّة في شعر معروف الرّصافي جزءاً من حياته إذ نراه يحنّ إلى أيّام الصّبا وعصر الشباب الذي رحل ولم يعد، فهو يشعر بالأسف على زمن الفتوّة والعنفوان، فيحنّ ويتشوّق إلى أيّام الصِّبا لكنّ هيهات لم يرجع الماضي بما فيه من الذكريات وأيّام الأنس والراحة، فيقول:

هَلْ عَائدٌ زَمَنٌ أتيتُ مَعَ المَها ما شِئْتُ مِنْ لَعِبٍ بِهِ ومِزاحِ

قَدْ بِتُّ فِيهِ مِن ضَجِيعِ كُلّ غَرِيرَةٍ رُود الشَّبابُ مِن الْخرادِ رَداحِ

أيَّامَ تحضُرُ بي بِمِضمَارِ الصِّبا فرَسُ الشَّبِيبَةِ وَهيَ ذاتُ جِماحِ[4]

يذكر الرصافي أيّام الصِّبا المفعمة بالحبّ والغرام التي قضاها في عهد الشباب فيدعو لها بالسقيّ، فكانت تشبه أزهار الرّبى في الغضاضة والجمال، وهي كالورد في نضرتها وبهجتها، وفي عمرها القصير ورائحتها الطيّبة ولونها الرائع؛ ولكن قد مضت أيّام الشباب ولم يبقَ منها سوى الذكريّات الجميلة، فيتحسّر الشاعر على أيّام شبابه ويعتقد أنّ أطيب العيش هو أيّام الشباب ولا بعد الشباب سوى العيش الحقير المزري؛ فيقول:

عَهدُ الصِّبا سَقيَاً لأيّامِ الصِّبَا أشبَـهُ شَـيءٍ بِأزَاهِيرِ الرُّبا

إنّ الصِّبَا كَالـوَردِ في نَضرَتِهِ وَعُمرُهُ وَاللَّونُ مِنـهُ والشَّذَا

وَاهاً عَلَى شَرخِ الشَّبابِ المُشتَهَى خَلَّفَ ذِكرَاهُ بِقَلبي ومَضَى

لَقَد ذَوَى غُصنُ حَياتي بَعدَهُ وَكَانَ رَيَّانَ التَّصَابي والمُنَى

أطيبُ عَيشِ المَرءِ في شَبَابِهِ فإن تَوَلَّى فَهوَ هَيشٌ مُزدَرَى[5]

4-2) الحنين والغربة الزمنيّة؛

1. المصدر نفسه، 183.
2. المصدر نفسه، 544.
3. المصدر نفسه، 183.
4. المصدر نفسه، 722 و 723.
5. المصدر نفسه، 386.

هو تعبير عن حالة نفسيّة تصيب الإنسان وهو يعيش داخل وطنه بين أهله وذويه فتجعله يشعر بالغربة بسبب من الأسباب كعدم إهتمام النّاس أو الحكام بمكانة الشاعر، أو فقدان المكانة الإجتماعيّة والمنزلة التي يستحقّها، وقد أخذ التعبير عن هذا النوع من الغربة صوراً عديدة كذمّ الزمان الذي يعيش فيه هؤلاء الشعراء، أو ذمّ أهلها، أو ذمّ حكام الزمن الذي يعيش به الشاعر، ...

وقد أعتب الرّصافي على وطنه بغداد ونوائب الأيّام التي قد أضاعت مكانته وابتعدته عن موطنه الحبيب، ولو كانت تعلم الأيّام بمكانته وعلوّ مقامه لأصعبَ عليها أن تضيّعه وتهجره؛ لكنّه لن ينس وطنه الذي قضى شطراً كبيراً من حياته فيه، فمهما رأى من المصائب والشدائد فهو يشكر وطنه والأيّام التي أضاعت مكانته، فالشاعر لم يرتكب ذنباً تجاه الوطن، بل قام بالدفاع والذود عن حياض البلاد وهاجم خصومها بأشعاره العربيّة لكنّها لم تستمع إلى إنشاده، ولو كان يدري الشاعر أنّها أعجميّة لاتفهم كلامه لقام بسيفه الصارم بدلاً من القلم بالدفاع عنها؛ فيقول:

عَتَبتُ عَلَى بَغدَادَ عَتبَ مُوَدِّعٍ أَمَضَّتهُ فِيهَا الحادِثاتُ قِراعَا
أضَاعتنيَ الأيامُ فِيهَا ولَو دَرَت لَعَزَّ عَلَيها أن اكُونَ مُضَاعَا
لَقَد أرضَعَتني كُلَّ خَسفٍ وإنّني لأشكُرَهَا أن لَم تُتِمَّ رَضَاعَا
وَمَا أنَا بِالجَاني عَلَيهَا وإنَّمَا نهَضتُ خِصَاماً دُونهَا ودِفَاعَا
وَأعلَمتُ أقلاَمِي بها عَرَبِيَّةً فَلَم تُبدِ إصغاءً لهَا وسِمَاعَا
وَلَو كُنتُ أدرِي أنَّها أعجَمِيَّةٌ تخدتُ بها السَّيفَ الجُزَارَ يَرَاعَا[1]

وفي موضع آخر يذكر الشاعر بأنّه يسافر إلى البلدان الشرقيّة والغربيّة في طلب المجد والعلى، فهو لايشعر في وطنه بالكرامة، والنّاس من حوله لايقيمون لشعره وأدبه وزناً، وهذا الأمر يسبب الشعور بضياع الأدب في نفس الشاعر، فنراه **يسافر تارةً في البلدان الشرقيّة وتارةً في البلدان الغربيّة؛ فيقول:**

وَسَافَرتُ في البُلدَانِ طَوراً مُشَرِّقاً أرُودُ العُلى فِيها وَطَوراً مغرِّبا[2]

وفي قصيدة «خواطر نفس» يذمّ الشاعر الأيّام بأنها تريد أن تقيّده ولكنّه يخالف الأيّام ويسعى وراء مجدٍ وعزّةٍ يطلبها، ويواجه الرّصافي في حياته صعوبات وخطوباً لكنّه يقف أمام ملمّات الدهر ليبلغ ما تطلبه النفس من الرّقي والعُلى؛ يقول:

تُرِيدُ ليَ الأيّامُ أن أتَقَيَّدا وَأطلُبُ مِنهَا أكُونُ المُمَجِّدا
وَتَقعُدُ بي دُونَ المَدَى في خُطُوبِها وَغَايَةُ هَمِّ النَّفسِ أن أبلُغَ المَدَى[3]

ويذمّ الشاعر الدهر الذي يعتزّ فيه الجاهل ويهمل مكانة العلماء والأدباء، فيشكو الشاعر بأنّ مكانته قد أهملت ولم يقدّروه حقّ قدره، أو على الأقلّ منه لم ينظروا إلى مكانته كما كان ينظر إلى نفسه؛ يقول:

أفي المُرُوءةِ أن يَعتَزَّ جاهِلُها وأن أكُونَ بها في قَبضَةِ الهُونِ[4]

ويشعر الرّصافي بهذه الغربة الزمنيّة أكثر فأكثر، فهو يعيش في بلاده غريباً ليس هناك من يقدّره ويعترف بمكانته، كأنّه نزل في بيت لايسكنه من أحد، فيتذمّر الشاعر من هذه الظروف القاسية التي فرضت عليه الإبتعاد من وطنه. فيغترب الشاعر في البلدان بسبب نوائب الدهر وشدائدها، مع أنّه ابن الدجلة، الذي عرف بأدبه وشعره مهما تباعد عنها ولم يرتو من مياهها العذبة. ويواصل الشاعر شكواه من الزمن الذي لم يكترث إلى مكانته، ويبيّن لنا مكانته الأدبيّة السامية فهو الشاعر الأوّل الذي أنشد لوطنه أحسن وأعذب أشعاره؛ فيقول:

كأنَّني في بِلادِي إن نَزَلتُ بهَا نَزَلتُ مِنهَا بِبَيتٍ غَيرِ مَسكُونِ
حَتَّى مَتَى أنَا في البُلدَانِ مغتَرَبٌ نَوَائِبُ الدَّهرِ بالأنيَابِ تُدمِيني
أنا ابنُ دِجلَةَ مَعرُوفاً بها أدَبي وَإن يَكُ الماءُ مِنهَا لَيسَ يُروِيني

1. المصدر نفسه، 182.
2. نفس المصدر، 754.
3. نفس المصدر، 754.
4. المصدر نفسه، 557

قَد كُنتُ بُلبُلَها الغِرِّيدَ أنشَدُهَا أشجَى الأناشِيدِ في أشجَى التَّلاحِينِ
حَيثُ الغُصُونُ أقَلَّتني مُكلَّلَةً بِالوَردِ ما بَينَ أزهارِ البَسَاتِينِ[1]

ونرى الشاعر يذمّ الدهر في موضع آخر من ديوانه، فالدّهر أو الأناس الذين يعيشون في تلك الفترة الزمنيّة التي يعيشها الرّصافي لايفقهون كلامه فكأنّه يخاطب شخصاً أعجمياً فلاسبيل للشاعر في إقناع الدّهر. إنّ الدّهر يعطف وجهه إلى الإنسان اللئيم ولايهتمّ بالإنسان الحرّ، فإنّ الشاعر يرى ضياع شعره وأدبه ومكانته في المجتمع، فإنّ اللئيم يرتقي مكاناً عالياً ويهزل من مكانة الأدباء والعلماء؛ فيقول:

هَلِ الدَّهرُ إلاّ أعجَمِيّ أخاطِبُه فَمالي إلى فَهمِ الحَدِيثِ أجاذِبُه
أيَنثَني إلى وَجهِ اللَّئِيمِ بِوَجهِهِ وَيَرتَدُّ مُزوَرّاً عَنِ الحُرِّ جَانِبُه
أرَاهُ إذا طارحتهُ الجِدّ لاعِباً وَما أنَا مِمَّن يا أميمُ يلاعِبُه[2]

ويديم الشاعر ذمّه بالدهر، فإنّ الدّهر يرميه بكلّ ما تصل يداه من الشدائد والنوائب؛ وينادي الشاعر جهرةً فلم يكن هناك من يجيبه، فقد ضعضع الدهر أركان الشاعر التي طالت على الجبال بالعلوّ والرّفعة، فيقول:

قَوَّضَ الدَّهرُ بِالخَرَابِ عِمَادِي وَرمَتني يَدَاهُ بِالأنكَادِ
كَم أُنادِي وَلَيسَ لي مِن مُجِيبٍ وَا ضَيَاعَاهُ جَهرَةً كَم أُنَادِي
ضَعضَعَ الدَّهرُ مِن بَنائيَ أركَا ناً شِداداً طَالَت عَلَى الأطوَادِ[3]

ويطول شكوى الشاعر من الدهر فهو يعاني منه، ولم يرَ شخصاً جديراً حتّى يبوح بشكواه؛ ويجول الشاعر بالبلاد مغترباً، فكلّما نزل ببلاده كأنّه نَزل ببيتٍ لم يسكنه أحد؛ فيشعر الرّصافي بتلك الوحشة إثر الإغتراب والفراق فلا يؤنس بأحدٍ، وقد نفد صبره فإلى متى يعيش في الإغتراب وتصيبه الخطوب والنوائب، إنّ الرّصافي ابن الدجلة، فقد عرف أدبه الوطن العراقيّ وإن لم ترويه مياهه؛ فهو يستحقّ أن يرجع إلى وطنه الحبيب ويجد مكانته المفتقَدة، الوطن الذي فارقه الشاعر من أجلِ المطاردة والعذاب من قبل الحاكم والذي اضطرّه إلى الهجرة والفراق؛ يقول:

قَد طَالَ شَكوَايَ مِن دَهرٍ أُكابِدُهُ أمَا أصادِفُ حُرّاً فيه يَشكِيني
كأنَّني في بِلادِي إن نَزَلتُ بها نَزَلتُ مِنها بِبَيتٍ غَيرِ مَسكُونِ
حَتَّى مَتَى أنَا في البُلدَانِ مُغتَرَبٌ نَوَائِبُ الدَّهرِ بالأنيابِ تُدمِيني
أنَا ابنُ دجلةَ مَعرُوفاً بها أدَبي وإن يَكُ الماءُ مِنها لَيسَ يُروِيني[4]

ويذمّ الرصافي حاكم الزمن الذي لقي منه المطاردة والعذاب، والذي اضطرّه إلى الهجرة والإغتراب، وقد كان الشاعر في وطنه يعيش عيشة الراحة والهناء، إلى أن حلّ فيه الحاكم الجائر فلقي الشاعر منه المعاناة فآثر الغربة؛ يقول:

فبينما كنتُ فيها صادحاً طَرِباً أستنشقُ الطّيبَ من نفحِ الرياحينِ
إذ حَلَّ فيها غرابٌ كان يُوحِشُني وَكانَ تَنعابُهُ بالبَينِ يُؤذِيني
حَتّى غدوتُ طريداً للغرابِ بها وما غدوتُ طريداً للشواهينِ
فَطِرتُ غَيرَ مُبالٍ عِندَ ذاك بما تَرَكتُ مِن نَرجِسٍ فِيها ونَسرينِ[5]

وفي موضع آخر يشكو الشاعر من الدهر الذي طرده من أرض العراق، وقد تغرّب عن بلده لما لقيه من عنتٍ وهوان، وصار أمر بغداد بيد أراذل القوم والذئاب؛ يقول:

مَا كُنتُ أحسبُ بَغدَاداً تُحلِّئُني عَن مَاء دِجلَتِها يَوماً وتَظمِيني

1. المصدر نفسه، 556
2. المصدر نفسه، 113.
3. المصدر نفسه، 504.
4. المصدر نفسه، 557.
5. المصدر نفسه، 557.

حتَّى تقلَّدَ فِيهَا الأمرَ زِعنـفَةٌ مِنَ الأنـاسِ بأخلاقِ السَّرَاحِينِ[1]

فيترك الشاعر بغداد لأنّه لا يصبر على الذلّ والهوان، ويتوجّه إلى لبنان ويأوي إليها، فإذا خابت آماله ببغداد فهو يأمل أن ينالها في موطن آخر؛ يقول:

عَلامَ أمكُثُ في بَغدادَ مُصطَبِراً عَلَى الضَّرَاعةِ في بُحبوحَةِ الهُونِ
لأجعَلَنَّ إلى بَيروتَ آمالٌ أؤمِّلُها فَهَل تخِيبُ إذا استَذَرَت بِصَنّينِ[2]

4-3) الحنين والغربة الروحيّة؛

هذا النوع من الحنين يعني الشعور بالغربة في هذا الوجود كما في حالة الزهّاد الذين يشعرون بالغربة في هذا العالم ويطلبون آمالهم في العودة إلى عالم الروح أو الآخرة. ويشعر الإنسان بهذا الإحساس العميق أنّ هذه حياة الدنيا هي ليست بدار قرار وهذه الأرض التي نعيش عليها ليست هي حياة الروح الخالدة فلذلك يعيش فيه كأنّه غريب وينتظر يوماً تعود الروح فيها إلى عالمها.

في قصيدة «هوّة الموت» يعتقد الشاعر أنّ حياة البشر قد وقعت على شفا حفر من الهوّات والناس يمشون خبط عشواء نحو هذه الهوّة التي تهدي بهم إلى الموت، وهذا الفضاء يشبه البحر الذي تتموّج فيه الكائنات، والنّاس في هذا التموّج يشبهونَ الفواقع التي تظهر تارةً وتغيب تارةً أخرى؛ وشأن النّاس في هذا العالم كشأن الفواقع في التفرّق والتشتّت؛ يقول:

كأنَّ حَياتَنا جَبَلٌ مُطِلٌّ عَلَى مَهَواتِهِ وَهيَ المَمَاتُ
مَشَيْنا فَوقَهُ عُمياً فظلَّت تَهاوَى نحوَ هُوَّتِهِ المُشاةُ
كأنَّ فَضاءَ هَذا الكَونِ بحرٌ تَموَّجُ فيهِ هَذِي الكَائناتُ
ونحنُ لَدَى تمَوُّجِهَا كأنَّا فَواقعُ ظَاهِراتٌ خَافِيَاتُ
تَبينُ تَارَةً وَتَغِيبُ أُخرَى فَشأنَاهَا التَّفَرُّقُ وَالشَّتَاتُ[3]

ويعتقد الشاعر أنّ هذه الدّنيا ليست بدار قرار، فبقاؤها مستحيل، والإنسان لابدّ أن يقصر من آماله. وكلّ شيء في هذه الدّنيا مستعار بين النّاس، ولايبقى شيء على حاله إلاّ وقد تغيّر وتحوّل؛

هِيَ دُنيا بِقاؤُها مُستَحِيلُ فَلْيَقِف عِندَ حَدِّهِ التَّأمِيلُ
كُلُّ شَيءٍ في أهلِهَا مُستَعَارُ مِن سواه وكُلُّ حَالٍ تحُولُ[4]

ويعتقد الشاعر أنّ النّاس قد أقاموا على حبّ الدنيا وزخرفها وهي لم تكن إلّا أمانيّ وأحلاماً مخيفة، ويسعى النّاس من أجلها والآجال مخبوءة الحوادث، وحياة المرء كحياة شجرةٍ تجتثّ يوماً جذورها، فلابدّ أن يستسلم الإنسان يوماً للموت؛ يقول:

جُبِلنا عَلَى حُبِّ الحَياةِ وَإنَّها مَخِيفَةُ أحلاَم أطَافَت بِحَالِمِ
سَعَى النَّاسُ وَالاقدَارُ مخبُوءَةٌ لَهُم وَنامُوا وَمَا لَيلُ الخُطُوبِ بِنائِمِ
جَرَت سُفُنُ الأيَّامِ مَشحُونَةً بِنَا عَلَى بَحرِ عَيشٍ بالرَّدَى مُتلاطِمِ
وَمَا المَرءُ إلّا دَوْحة في تَنُوفَة مُلَوَّحةٌ أغصانُها بالسَّمائِمِ
وَلا بُدَّ أن تُجْتَثَّ يوماً جُذورها و تَقلَعها إحدَى الرِّياحِ الهَواجِمِ[5]

وقد ضاعت جذور الحياة، فظلّ المرء يعيش في الأوهام، وقد التهى بحياة الدنيا وأغفل عن الحياة الآخرة، وتناسى الموت الذي هو مدرك البشر أينما حلّ أو رحلَ؛ يقول:

ضَاعَ جَذرُ الحَياةِ عَنَّا فَخِلنَا أنَّها كَالأصَمِّ في الأعدَادِ

1. المصدر نفسه، 558.
2. المصدر نفسه، 558.
3. المصدر نفسه، 730.
4. المصدر نفسه، 425.
5. المصدر نفسه، 201.

شَغَلَتنَا الدُّنيا بِلَهوٍ وَلَعبٍ فَغَفَلنا وَالموتُ بِالمِرصَادِ[1]

وقد ضلّ مَن يطلب الراحة في هذه الدنيا وهي موضع العراك والهلاك، ويعبّر الشاعر عن هذه الدّنيا بأنّها كجروحٍ أثخنت بأهلها ولم يكن الموت سوى الضماد لهذه الجروح؛ والموت هو راحة للأرواح تنطلق به من الأسر؛ يقول:

ضَلَّ مَن رَامَ رَاحةً فِي حَياةٍ نَحنُ مِنها فِي مَعرَكٍ وَجَلادِ

إنَّمَا هَذه الحَياةُ جُرُوحٌ اثخَنَتنَا وَالموتُ مِثلَ الضَّمَادِ

كُلُّ أسرٍ يَهُونُ أن أُطلَقَت أَر وَاحُنا المُوثَقَات بالأجسَادِ[2]

ولا يجدي التوجّع والأسى من الموت، فكلّ نفس ذائقة الموت، ولاينفع الهرب والفرار من المنايا. وإنّ الأحزان والمآسي قد تعين المنايا فتقترب الآجال البعيدة؛ فيقول:

ومَاذا عَسَى يُجدِي التَّوجُّعُ والأسَى مِنَ الموتِ إذ كُلٌّ عَلى المَوتِ وَارِدُ

تُعِينُ مَنايَانَا عَلَينَا بحُزنِنَا فَيَقرُبُ مِن آجَالِنَا المُتَبَاعَدُ[3]

5) نتائج البحث

بناء على ما جاء في مقدمة البحث من الموضوعات والمسائل، قد تجلّت آثار الغربة والحنين في ديوان الرصافي بطرق مختلفة كـ: الحنين والغربة المكانية والحنين والغربة الزمنيّة والروحية والدينية. ويشمل الحنين والغربة المكانية، ذكر الوطن والديار والحنين اليه وكذلك ذكر الايام الماضية وذكر الأهل والأقرباء والأصدقاء. وفي مجال الحنين والغربة الزمنيّة قد عبّر الشاعر عن مشاعره حول فقدان مكانته الإجتماعية والمنزلة التي يستحقّها، فالنّاس من حوله لا يقيمون له ولأدبه وزناً. عن غربته الروحية نرى الشكوة والرثاء في شعر الشاعر ويذكر الشاعر معاناته وآلامه ويستنجد الآخرين ويشكو من الزمن والأهل والأحباء في بعض الأحيان. وهذا من الأسباب التي أدّت إلى غربة الشاعر وهو يعيش بين أهله وذويه. وقد عبّر الرصافي عن هذا الشعور في كثير من أشعاره وقام بذمّ الزمان الذي يعيش فيه أو ذمّ أهلها.

وكشفت أشعار الحنين عن مظهر آخر من مظاهر الحنين وهو الحنين الدّيني، الذي ظهر نتيجة تقرّب الشاعر من الله تعالى. فقد عبّر الشاعر في هذا النوع من الغربة والحنين، عن غربة الروح في هذه الدّنيا، وبأنّها ليست بدار قرار ولا جديرة بالبقاء والسكون، فعلى الإنسان أن لا يغترّ بها ولا يعتمد عليها.

وكان حنينه صادقاً يعبّر عن مدى علاقة الشاعر بوطنه وأحبائه وأهله. وقد عبّر الشاعر عن هذا الحنين والغربة المكانيّة بذكر الوطن، وذكر الأحبّة والأصدقاء كما حنّ الشاعر إلى أيّام الشباب بذكر الذكريّات الماضيّة بشعور مرهف وكلام صادقٍ ونصٍ جليٍّ. واحتلّ شعر الحنين إلى الوطن جانباً كبيراً من نتاج الشاعر، فقد عبّر من خلاله عن حنينه الممزوج بالألم والحسرة على فراق الوطن.

1. المصدر نفسه، 46.
2. المصدر نفسه، 46.
3. المصدر نفسه، 420.

المصادر

القرآن

ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم، 2003م، الشعر و الشعراء تحقيق: أحمد محمد شاكر، د.ط، القاهرة: دار الحديث.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم، 1994م، لسان العرب، الطبعة الثالثة، بيروت: دار صادر.

الإبياري، إبراهيم، 1962م، الوطن في الأدب العربي، د.ط، القاهرة: دار القلم.

أبوحاقة، أحمد(1960)؛ أبوفراس الحمداني، ط1، بيروت: دارالشرق الجديد.

امرؤ القيس، ابن حجر الكندي، لا تاريخ، الديوان، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثالثة، القاهرة: دار المعارف.

البيهقي، إبراهيم بن محمّد، 1919م، المحاسن و المساويء، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، د.ط، القاهرة: دار المعارف.

التونجي، محمّد، 1999م، المعجم المفصل في الأدب، الطبعة الثانية، بيروت: دار الكتب العلميّة.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، 1978م، الحنين إلى الأوطان، تحقيق: عبدالفتّاح قبلان، الطبعة الأولى، مصر: مطبعة المنار.

الجبّوري، يحيى، 2008م، الحنين و الغربة في الشعر العربي (الحنين إلى الأوطان)، الطبعة الأولى، عمّان: دار مجدلاوي.

حوّر، محمّد إبراهيم، 1973م، الحنين إلى الوطن في الأدب العربيّ حتّى نهاية العصر الأمويّ، د.ط، مصر، القاهرة: دار نهضة.

دقالي، محمّد دحمد، 2008م، الحنين في الشعر الأندلسي (القرن السابع الهجري)، الطبعة الأولى، الإسكندريّة: دار الوفاء للطباعة والنشر.

الرصافي، معروف، 2000م، الأعمال الشعريّة الكاملة، د.ط، بيروت: دار العودة.

قدامة بن جعفر، أبو الفرج، لا تاريخ، نقد الشعر، تحقيق: محمّد عبد المنعم خفاجي، د.ط، بيروت: دار الكتب العلميّة.

عامر عبدالله، عامر عبدالله(2004)؛ تجربة السجن في شعر أبي فراس الحمداني و المعتمد بن عباد، فلسطين: جامعة النجاح الوطنية.

المرزوقى، احمد، 1991م، شرح حماسة ابى تمّام، د.ط، بيروت: دارالكتب